حتى من هذا المنطلق نرى ان الهوّة كانت واسعة تماما بين الاستعمارين، الصهيوني والاوروبي، وان كان هناك تلاق في الاهداف وتشابه في الاسلوب حيث ان «تقليد» الصهيونية للاستعمار الاوروبي في إرسال المستعمرين للسيطرة وإقامة جاليات استيطانية تستطيع ان تقيم دولة على مرّ الزمن تابعة للدولة الأم، كان واقفا على رأسه لا على قدميه حيث «كان الاستعمار عند الصهيونية أداة لبناء الدولة القومية وليس وليدا لقومية قد سلف تحقيقها»(٨).

وكما ان «اسرائيل» ربيبة الصهيونية، لم يكن وجودها عفويا ووليد الصدفة، كذلك فالحركة الصهيونية ـ الأم ـ كانت «لاسباب نشوئها عوامل عديدة، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية، منها ما يتعلق بأوضاع اليهود واليهودية الذاتية خلال تلك الفترة التي كانت بحد ذاتها تتمة لما سبقها من تطور في هذه المجالات خلال القرون السابقة، ومنها ما يتعلق بالأوضاع العامة في البلدان التي كان اليهود يعيشون فيها والتغييرات التي حدثت في أوروبا وروسيا، خصوصا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر»(٩). ولولا الجهد المنظم والتخطيط الدقيق والمتواصل الذي بذله قادة الصهيونية بمساعدة المتعاطفين معهم والمناصرين لهم لما توصلوا إلى ما نراه اليوم ونعاني من نتائجه.

وقد برز التخطيط الذكي عند قادة الحركة منذ بداية تكوينها، حيث توهّم البعض أن انقسام الحركة الصهيونية بشكل دائم ـ ومستمر حتى اليوم ـ إلى أجنحة، هو بداية النهاية لها. بيد انه في الواقع، ورغم كل الانقسامات والخلافات في وجهات النظر والآراء، بقيت الحركة موحّدة وموجهة على أسس ثابتة لاهداف محددة واضحة من قبل قيادة تضع نصب أعينها تحقيق ما رسمته الثوابت الأساسية لمنطلقاتها ونشأتها. ومن المعروف انه كان للحركة الصهيونية في سنواتها الاولى نوعان من المناصرين والمؤيدين: الصهيونيون الثقافيون والصهيونيون السياسيون. «وقد اهتم الصهيونيون الثقافيون بشكل اولي بإحياء الثقافة العبرية، وبارتباط اليهود بتاريخ فلسطين لغويا ودينياوجنسيا. أما الصهيونيون السياسيون فقد عنوا بالمشكلة اليهودية، وكانت فلسطين بالنسبة لهم أفضل الأماكن منطقيا لاقامة دولة قومية لليهود. بيد أن بعض الصهيونيين السياسيين الاوائل لم يصر على فلسطين، وهذه حقيقة تظهر ان اهتمامهم بخلق قومية يهودية أعظم بكثير من اهتمامهم بالثقافة اليهودية وبفكرة العودة الخيالية»(١٠).

هذا وتؤكد المجتمعات التي كان اليهود يعيشون بين ظهرانيها، أن عديدين منهم كانوا يفضلون العزلة عن الآخرين والعيش في مجتمعات مغلقة، ويرفضون الاندماج مع السكان المحليين، ويبتعدون عن كل ما يمت للحياة الاجتماعية بصلة، وذلك بسبب ممارستهم لبعض الأعمال والحرف التي كانت تقتصر عليهم دون سواهم في بعض الاحيان. وكانت التجارة والربا محور اهتمام هذا النوع منهم بالاضافة للنظرة الاستعلائية التي كان هؤلاء ـ وما زالوا ـ ينظرون بها إلى سائر البشر، منطلقين من إدعائهم أنهم «شعب الله المختار» وان الله لهم وحدهم دون الآخرين، وهو حكر عليهم دون سواهم. والاضطهادات التي عانى منها يهود في المجتمعات الغربية، كان يقابلها في المجتمع العربي تسامح واسع، ومعاملتهم على قدم المساواة مع المواطنين العرب دون أي تمييز. وفي الوقت الذي نشأت فيه «الحركة اللاسامية» في المانيا في بادىء الامر، لتضطهد اليهود باسم العنصرية لا الدين، ثم انتشرت في الاقطار الاوروبية، وبلغت هذه الاضطهادات الذروة في روسيا وبولونيا، مما أدى إلى مذابح كثيرة كان لها الأثر الكبير في تأسيس الجمعيات والمنظمات الصهيونية التي مثلت بذور الحركة الصهيونية فيمابعد، فقد كان للعرب دورهم الكبير في العطف على اليهود في المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها بينهم، كما عطفوا على من وفد منهم إلى فلسطين مشكلا الدفعة الاولى من طلائع الصهيونية قبل ان تتخذ الهجرة